بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة طه مكية

طه ﴿١﴾.

﴿طه﴾ أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء، وفخمهما ابن كثير، وابن عامر على الأصل، والباقون أمالوهما، وعن الحسن رضي الله عنه: طه وفسر بأنه أمر بالوطء وأنّ النبي ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه. معًا، وأنّ الأصل طأ فقلبت همزته هاء[1]، أو قلبت ألفًا في يطأ فيمن قال: لا هناك المرتع، ثم بني عليه الأمر، والهاء للسكت، ويجوز أن يكتفي بشطري الأسمين، وهما الدالان بلفظهما على المسميين، والله أعلم بصحة ما يقال: إن طاها في لغة عك في معنى: يا رجل، ولعل عك تصرفوا في يا هذا كانهم في لغتهم قالبون الياء طاء فقالوا في ياطا واختصروا هذا فاقتصروا على ها وأثر الصنعة ظاهر لا يخفي في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طاها في خلائقكم ... لا قدّس الله أخلاق الملاعين

والاقوال الثلاثة في الفواتح أعني التي قدمتها في أول الكاشف عن حقائق التنزيل هي التي يعول عليها الألباء المتقنون.

مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾.

﴿ما أنزلنا﴾ إن جعلت طه تعديد الأسماء الحروف على الوجه السابق ذكره فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسمًا للسورة احتملت أن تكون خبرًا عنها وهي في موضع المبتدأ و﴿القرآن﴾ ظاهر أوقع موقع الضمير لأنها قرآن، وأن يكون جوابًا لها وهي قسم، وقرئ ما نزل عليك القرآن ﴿لتشقى﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى: ﴿لعلك باخع نفسك﴾[2] والشقاء يجيء في معنى: التعب، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر، أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنكر ولم يكتب عليك أنّ يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة، وقيل: إن أبا جهل والنضر بن الحرث قالا له: إنك شقي لأنك تركت دين آبائك، فأريد رد ذلك: بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز والسبب في درك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها، وروي: أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى اسمغدت قدماه، فقال له جبريل عليه السلام: أبق على نفسك فإنّ لها عليك حقًا[3]، أي: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة، وكل واحد من لتشقى وتذكرة علة للفعل إلا أن الأوّل وجب مجيئه مع اللام؛ لأنه ليس لفاعل الفعل المعلل ففاتته شريطة الانتصاب على المفعولية، والثاني: جاز قطع اللام عنه ونصبه لاستجماعه الشرائط.

فإن قُلْتَ: أما يجوز أن تقول ما أنزلنا عليك القرآن أن تشقى كقوله تعالى: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾[4] **قُلْتُ:** بلى ولكنها نصبه طارئة كالنصبة في: ﴿واختار موسى قومه﴾[5] وأمّا النصبة في تذكرة فهي كالتي في: ضربت زيدًا؛ لأنه أحد المفاعيل الخمسة التي هي أصول وقوانين لغيرها.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿تذكرة﴾ بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾؟ **قُلْتُ:** لا لاختلاف الجنسين ولكنها نصب على الاستثناء المنقطع الذي إلا فيه بمعنى: لكن، ويحتمل أن يكون المعنى[6]: إنا أنزلناه عليك القرآن لتحتمل متاعب التبليغ ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام ومقابلتهم، وغير ذلك من أنواع المشاق وتكاليف النبوّة، وما أنزلنا عليك هذا المتعب الشاق إلا ليكون تذكرة على هذا الوجه، يجوز أن يكون تذكرة حالاً ومفعولاً له ﴿لمن يخشى﴾ لمن يؤول أمره إلى الخشية، ولمن يعلم الله منه أنه يبدل بالكفر إيمانًا وبالقسوة خشية.

تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾.

في نصب ﴿تنزيلاً﴾ وجوه أن يكون بدلاً من تذكرة إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له؛ لأنّ الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمرًا، وأن ينصب بأنزلنا؛ لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة، أنزلناه تذكرة، وأن ينصب على المدح والاختصاص، وأن ينصب بيخشى مفعولاً به أي: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن وإعراب بين، وقرئ: تنزيل بالرفع على خبر مبتدأ محذوف. ما بعد تنزيلاً إلى قوله: ﴿له الأسماء الحسنى﴾[7] تعظيم

---

(1) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة طه (الحديث رقم: 2232)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في حب النبي ﷺ. فصل في براءته ﷺ في النبوّة (الحديث رقم: 1497).

(2) سورة الكهف، الآية: 6.

(3) رواه البيهقي في كتاب: الدعوات الكبير، (الزيلعي 2/348).

(4) سورة الحجرات، الآية: 2.

(5) سورة الأعراف، الآية: 155.

(6) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني بعد، فإن فيه إثبات كون الشقاء سبباً في نزوله، عكس الأوّل، وإن لم تكن اللام سببية، فكانت= = للصيرورة مثلاً، ولم يكن فيه ما جرت عادة الله تعالى به مع نبيه ﷺ، من نهيه عن الشقاء والحزن عليهم، وضيق الصدر بهم، وكان مضمون هذه الآية متبايناً عن قوله تعالى: ﴿فلا يكن في صدرك حرج﴾ ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وأمثاله كثيرة، فالظاهر، والله أعلم، هو التأويل الأوّل.

(7) سورة طه، الآية: 8.

وتفخيم لشأن المنزل لنسبته إلى من هذا أفعاله وصفاته، ولا يخلو من أن يكون متعلقه إما تنزيلاً نفسه فيقع صلة له، وإما محذوفًا فيقع صفة له.

فإن قُلْتَ: ما فائدة النقلة من لفظ المتكلم إلى لفظ الغائب **قُلْتُ:** غير واحدة منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والروعة، ومنها أنّ هذه الصفات إنما تسردت مع لفظ الغيبة، ومنها أنه قال أولاً: أنزلنا ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فضوعفت الفخامة من طريقين، ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل والملائكة النازلين معه. وصف السمٰوات بالعلى دلالة على عظمة قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها.

ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾.

قرئ: **﴿الرحمٰن﴾** مجرورًا صفة لمن خلق، والرفع أحسن لأنه: إما أن يكون رفعًا على المدح على تقدير: هو الرحمٰن، وإما أن يكون مبتدأ مشارًا بلامه إلى من خلق.

فإن قُلْتَ: الجملة التي هي **﴿على العرش استوى﴾** ما محلها إذا جررت الرحمٰن أو رفعته على المدح؟ **قُلْتُ:** إذا جررت فهي خبر مبتدأ محذوف لا غير، وإن رفعت جاز أن تكون كذلك، وأن تكون مع الرحمٰن خبرين للمبتدأ. لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضًا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلولة بمعنى: أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أنّ من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأسًا قيل فيه يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم: هو جواد، ومنه قول الله عزّ وجل: **﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾**[1] أي: هو يخيل **﴿بل يداه مبسوطتان﴾**[2] أي: هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام **﴿وما تحت الثرى﴾** وما تحت سبع الأرضين، عن محمد بن كعب، وعن السدي: هو الصخرة التي تحت الأرض السابعة. أي: يعلم ما أسررته إلى غيرك وأخفى من ذلك، وهو: ما أخطرته ببالك، أو ما أسررته في نفسك **﴿وأخفى﴾**[3] منه وهو ما ستسره فيها، وعن بعضهم: إن أخفى فعل يعني: أنه يعلم أسرار العباد، وأخفى عنهم ما يعلمه هو كقوله تعالى: **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا﴾**[4] وليس بذاك.

فإن قُلْتَ: كيف طابق الجزاء الشرط؟ **قُلْتُ:** معناه: وإن تجهر بذكر الله من دعاء أو غيره فاعلم أنه غني عن جهرك، فإما أن يكون نهيًا عن الجهر كقوله تعالى: **﴿واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول﴾**[5] وإما تعليمًا للعباد أنّ الجهر ليس لإسماع الله وإنما هو لغرض آخر.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾.

﴿الحسنى﴾ تانيث الأحسن وصفت بها الأسماء؛ لأنّ حكمها حكم المؤنث، كقولك: الجماعة الحسنى، ومثلها: **﴿مآرب أخرى﴾**[6] و**﴿من آياتنا الكبرى﴾**[7] والذي فضلت به أسماؤه في الحسن سائر الأسماء دلالتها على معاني التقديس، والتمجيد، والتعظيم، والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾.

قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوّة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود. يجوز أن ينتصب **﴿إذ﴾** ظرفًا للحديث لأنه حدث، أو لمضمر أي: حين **﴿رأى نارًا﴾** كان كيت وكيت، أو مفعولاً لا نكر، استأنن موسى شعيبًا عليهما السلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فولد له في الطريق ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة وقد ضلّ الطريق، وتفرّقت ماشيته، ولا ماء عنده وقدح، فصلد زنده، فرأى النار عند ذلك، قيل: كانت ليلة جمعة **﴿امكثوا﴾** اقيموا في مكانكم. الإيناس الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه: إنسان العين لأنه يتبين به الشيء، والإنس لظهورهم كما قيل: الجنّ لاستتارهم، وقيل:

---

(1) سورة المائدة، الآية: 64.

(2) سورة المائدة، الآية: 64.

(3) قال أحمد: لا يخفي أن جعله فعلاً قاصر لفظاً، ومعنى: أما لفظاً، فإنه يلزم منه عطف الجملة الفعلية على الإسمية، إن كان المعطوف عليه الجملة الكبرى، أو عطف الماضي على المضارع، إن كان المعطوف عليه الصغرى، وكلاهما دون الأحسن، وأما معنى: فإن المقصود الحض على ترك الجهر بإسقاط فائدته، من حيث أنّ الله تعالى يعلم السر وما هو أخفى منه، فكيف يبقى للجهر فائدة، وكلاهما على هذا التأويل، مناسب لترك الجهر، وأما = إذا جعل فعلاً، فيخرج عن مقصود السياق، وإن اشتمل على فائدة أخرى، وليس هذا كقوله تعالى: **﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾** لأنّ بين السياقين اختلافاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(4) سورة طه، الآية: 110.

(5) سورة الأعراف، الآية: 205.

(6) سورة طه، الآية: 18.

(7) سورة طه، الآية: 23.

هو إبصار ما يؤنس به. لما وجد منه الإيناس فكان مقطوعًا متيقنًا حققه لهم بكلمة أن ليوطن أنفسهم. ولما كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع وقال ﴿لعلي﴾ ولم يقطع فيقول إني ﴿آتيكم﴾ لئلا يعدّ ما ليس بمستيقن الوفاء به. القبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما، ومنه قيل: المقتبسة لما يقتبس فيه من سعفة أو نحوها، ﴿هدى﴾ أي: قومًا يهدونني الطريق أو ينفعونني بهداهم في أبواب الدين، عن مجاهد، وقتادة: وذلك لأنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية في جميع أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل، والمعنى: ذوي هدى، أو إذا وجد الهداة فقد وجد الهدى، ومعنى: الاستعلاء في على النار أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: أنه لصوق يقرب من زيد، أو لأنّ المصطلين بها والمستمتعين بها إذا تكنفوها قيامًا وقعودًا كانوا مشرفين عليها، ومنه قول الأعشى:

وبات على النار الندى والمحلق

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾.

قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿انّي﴾ بالفتح أي: نودي بأني ﴿انا ربك﴾ وكسر الباقون أي: نودي فقيل: يا موسى، أو لأنّ النداء ضرب من القول فعومل معاملته. تكرير الضمير في إني أنا ربك لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة، روي: أنه لما نودي يا موسى قال: من المتكلم؟ فقال له الله عزّ وجلّ: إني أنا ربك، وأنّ إبليس وسوس إليه فقال: لعلك تسمع كلام شيطان، فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمعه من جميع جهاتي الست وأسمعه بجميع أعضائي، وروي: أنه حين انتهى رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها كأنها نار بيضاء تتقد، وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نورًا عظيمًا، فخاف وبهت، فألقيت عليه السكينة، ثم نودي، وكانت الشجرة عوسجة، وروي: كلما دنا أو بعد لم يختلف ما كان يسمع من الصوت. وعن ابن اسحق: لما دنا استأخرت عنه، فلما رأى ذلك رجع وأوجس في نفسه فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلم. قيل: أمر بخلع النعلين؛ لأنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ[1]، عن السدّي وقتادة، وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبرّكًا به، وقيل: لأنّ الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلاً تصدّق، والقرآن يدل على أنّ ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها، وروي: أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي ﴿طوى﴾ بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرّتين نحو ثني أي: نودي نداءين، أو قدّس الوادي كرة بعد كرة.

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾.

﴿وانا اخترتك﴾ اصطفيتك للنبوّة، وقرأ حمزة: وإنا اخترناك ﴿لما يوحى﴾ للذي يوحى، أو الموحي، تعلق اللام باستمع أو باخترتك ﴿لذكرى﴾ لتذكرني، فإنّ ذكري أن اعبد ويصلي لي، أو لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار. عن مجاهد: أو لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، ولأن أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق، أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيري، أو لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضًا آخر، أو لتكون لي ذاكرًا غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به كما قال: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾[2] ولأوقات ذكري وهي: مواقيت الصلاة، كقوله تعالى: ﴿إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾[3] واللام مثلها في قولك: جئتك لوقت كذا، وكان ذلك لست ليال خلون، وقوله تعالى: ﴿يا ليتني قدّمت لحياتي﴾[4] وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها من قوله عليه السلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»[5] وكان حق العبارة أن يقال: لذكرها: كما قال رسول الله ﷺ: «إذا ذكرها» ومن يتمحل له يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر الله، أو بتقدير حذف المضاف أي: لذكر صلاتي، أو لأنّ الذكر والنسيان من الله عزّ وجلّ في الحقيقة، وقرأ رسول الله ﷺ: «للذكرى».

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾.

أي[6]: أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 1/28 والترمذي في كتاب: اللباس باب: ما جاء في لبس الصوف (الحديث رقم: 1734).

(2) سورة النور، الآية: 37.

(3) سورة النساء، الآية: 103.

(4) سورة الفجر، الآية: 24.

(5) رواه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها (الحديث رقم: 597) ومسلم في كتاب: المساجد، باب: «قضاء الصلاة الفائتة» (الحديث رقم: 1566).

(6) قال أحمد: ولا يقنع في رد هذا التأويل بالهو بنا، فإنه بين الفساد، وذلك أنّ خفاءها عن الله تعالى محال عقلاً، فكيف يوصف المحال العقلي بقرب الوقوع، وأحسن ما في محامل الآية، ما ذكره الأستاذ أبو علي، حيث قال: المراد: أكاد أزيل خفاءها، أي: أظهرها، إذاً لخفاء الغطاء، وهو أيضاً ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها، ثم تقول العرب: أخفيته، إذا أزلت خفاءه، كما تقول: أشكيته وأعتبته، إذا أزلت شكايته وعتبه، وحينئذ يلتئم القراءتان، أعني: فتح الهمزة وضمها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

اللطف لما أخبرت به، وقيل معناه: أكاد أخفيها من نفسي ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف، ومحذوف لا دليل عليه مطرح، والذي غرّهم منه أنّ في مصحف أبيّ: أكاد أخفيها من نفسي، وفي بعض المصاحف: أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها، وعن أبي الدرداء، وسعيد بن جبير: أخفيها بالفتح من خفاه إذا أظهره أي: فرب إظهارها كقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾[1] وقد جاء في بعض اللغات أخفاه بمعنى: خفاه وبه فسر بيت امرئ القيس:

فإن تدفنوا الدّاء لا نخفه ... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

فأكاد أخفيها محتمل للمعنيين ﴿لتجزى﴾ متعلق بآتية ﴿بما تسعى﴾ بسعيها. أي: لا يصدّنك عن تصديقها، أو الضمير للقيامة ويجوز أن يكون للصلاة.

فإن قُلْتَ: العبارة لنهي من لا يؤمن عن صدّ موسى، والمقصود نهي موسى عن التكذيب بالبعث، أو أمره بالتصديق، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء هذا المقصود؟

قُلْتُ: فيه وجهان: أحدهما: أنّ صدّ الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب، والثاني أنّ صدّ الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم: لا أرينك ههنا المراد: نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته وذلك سبب رؤيته إياه فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب كأنه قيل: فكن شديد الشكيمة صليب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجمّ الغفير، إذ لا شيء أطمّ على الكفرة ولا هم أشدّ له نكيرًا من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى وأتباعه لا البرهان وتدبره، وفي هذا حثّ عظيم على العمل بالدليل، وزجز بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾.

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ كقوله تعالى: **﴿وهذا بعلي شيخًا﴾**[2] في انتصاب الحال بمعنى: الإشارة، ويجوز أن تكون تلك اسمًا موصولاً لا صلته بيمينك، إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عزّ وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، وليقرّر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة، ونظيره: أن يربك الزراد زبرة من حديد ويقول لك: ما هي؟ فتقول: زبرة حديد، ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردًا فيقول لك هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد، وقرى ابن أبي إسحق: عصى على لغة هذيل، ومثله: ﴿يا بشرى﴾[3] أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن: **﴿عصاي﴾** بكسر الياء لالتقاء الساكنين، وهو مثل قراءة حمزة ﴿بمصرخي﴾[4] وعن ابن أبي إسحق سكون الياء **﴿أتوكا عليها﴾** أعتمد عليها إذا أعييت، أو وقفت على رأس القطيع، وعند الظفرة. هش الورق: خبطه أي: أخبطه على رؤس غنمي تأكله، وعن لقمان بن عاد: أكلت حقًا وابن لبون وجذع وهشة نخب وسيلاً دفع والحمد لله من غير شبع سمعته من غير واحد من العرب، ونخب واد قريب من الطائف كثير السدر، وفي قراءة النخعي: أهش وكلاهما من مش الخبز يهش إذا كان ينكسر لهشاشته، وعن عكرمة أهس بالسين أي أنحى عليها زاجرًا لها، والهس: زجر الغنم، ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال: ما هي إلا عصًا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان ليكون جوابه مطابقًا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام به، ويجوز أن يريد عزّ وجلّ أن يعدّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة كأنه يقول له: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة كتبت تعتدّ بها وتحتفل بشأنها، وقالوا: إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته، وقالوا: إنما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل، وقالوا: اسم العصا نبعة، وقيل في المآرب: كانت ذات شعبتين ومحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين، وإذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبيتها وألقى عليها الكساء واستظلّ، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، وقيل: كان فيها من العجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوًا، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدوّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب، وكانت تقية الهوام.

فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾.

السعي المشي بسرعة وخفة حركة.

فإن قُلْتَ: كيف نكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان

---

(1) سورة القمر، الآية: 12.
(2) سورة هود، الآية: 72.
(3) سورة يوسف، الآية: 19.
(4) سورة إبراهيم، الآية: 22.

والثعبان؟ **قُلْتُ**: أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجان فبينهما تناف؛ لأنّ الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق، وفي ذلك وجهان: أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية تنقلب حية صفراء دقيقة ثم تتورّم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانًا، فأريد بالجان أوّل حالها وبالثعبان مآلها، والثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فلما رآها تهتزّ كأنها جان﴾[1] وقيل: كان لها عرف كعرف الفرس، وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعًا. لما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع والنفار ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف، وعن ابن عباس: انقلبت ثعبانًا ذكرًا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر، وعن بعضهم: إنما خافها لأنه عرف ما لقي آدم منها، وقيل: لما قال له ربه: لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها.

السيرة من السير، كالركبة من الركوب. يقال: سار فلان سيرة حسنة، ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة، وقيل: سير الأوّلين. ويجوز أن ينتصب على الظرف أي: سنعيدها في طريقتها الأولى أي: في حال ما كانت عصا. وأن يكون أعاد منقولاً من عادة بمعنى عاد إليه، ومنه بيت زهير:

وعادك أن تلاقيها عداء

فيتعدى إلى مفعولين، ووجه ثالث حسن: وأن يكون سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى: أنها أنشئت أوّل ما أنشئت عصًا ثم ذهبت وبطلت بالقلب، فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشأها أوّلاً، ونصب سيرتها بفعل مضمر أي: تسير سيرتها الأولى يعني: سنعيدها سائرة سيرتها الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾.

قيل: لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لمجنبتيه، وجناحا الإنسان جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر، سميا جناحين لأنه يجنحهما عند الطيران، والمراد: إلى جنبك تحت العضد، على ذلك قوله: ﴿تخرج﴾. السوء الرداءة والقبح في كل شيء فكنى به عن البرص، كما كنى عن العورة بالسوأة، وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص فكنوا عنه بالأبرش، والبرص أبغض شيء إلى العرب وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديرًا بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف ولا أحر المفاصل من كنايات القرآن وآدابه. يروى: أنه كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر. ﴿بيضاء﴾ و﴿آية﴾ حالان معًا ومن غير سوء من صلة البيضاء، كما تقول أبيت من غير سوء، وفي نصب آية وجه آخر، وهو أن يكون بإضمار نحو: خذ دونك وما أشبه ذلك، حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف ﴿لنريك﴾ أي: خذ هذه الآية أيضًا بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى، ولنريك بهما الكبرى من آياتنا، أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾.

لما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي لعنه الله عرف أنه كلف أمرًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويفسح قلبه ويجعله حليمًا حمولاً يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التي يذهب معها صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه في الجملة أمره الذي هو: خلافة الله في أرضه وما يصحبها من مزاولة معاظم الشؤون ومقاساة جلائل الخطوب.

فإن قُلْتَ[2]: لي في قوله ﴿اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾ ما جدواه والكلام بدونه مستتب؟ **قُلْتُ**: قد أبهم الكلام أوّلاً فقيل اشرح لي ويسر لي فعلم أن ثم مشروحًا وميسرًا، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان أكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل. عن ابن عباس: كان في لسانه رتة لما روي من حديث الجمرة، ويروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ، ولما دعاه قال: إلى أيّ رب تدعونني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها[3]، وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون في قصعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المواكلة، واختلف في زوال العقدة بكمالها فقيل: ذهب بعضها وبقي بعضها لقوله تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني

---

(1) سورة النمل، الآية: 10.

(2) قال أحمد: ويحتمل عندي، والله أعلم، أن تكون فائدتها: الاعتراف بأن منفعة شرح الصدر راجعة إليه، وعائدة إليه، فإن الله عز وجل لا ينتفع بإرساله، ولا يستعين بشرح صدره تعالى وتقدّس، على خلاف رسول الملك، إذا طلب منه أن يريح عليه، فإنما يطلب منه = ما يعود نفعه على مرسله، ويحصل له غرضه من رسالته، والله أعلم.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/575.

لسانًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولا يكاد يبين﴾[2] وكان في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما رتة فقال رسول الله ﷺ: «ورثها من عمه موسى»[3]. وقيل: زالت بكمالها لقوله تعالى: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وفي تنكير العقدة وإن لم يقل عقدة لساني أنه طلب حل بعضها إرادة أن يفهم عنه فهمًا جيدًا ولم يطلب الفصاحة الكاملة و﴿من لساني﴾ صفة للعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني. الوزير من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر لأنّ الملك يعتصم برأيه ويلجئ إليه أموره، أو من المؤازرة وهي المعاونة. عن الأصمعي قال: وكان القياس أزيرًا فقلبت الهمزة إلى الواو، ووجه قلبها أنّ فعيلاً جاء في معنى: مفاعل مجيا صالحًا كقولهم: عشير وجليس وقعيد وخليل وصديق ونديم، فلما قلبت في أخيه قلبت فيه، وحمل الشيء على نظيره ليس بعزيز ونظر إلى يوازر وإخوته وإلى الموازرة. وزيرًا وهرون مفعولاً قوله: اجعل، قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة، أولي وزيرًا مفعولاه، وهرون عطف بيان للوزير و﴿أخي﴾ في الوجهين بدل من هرون، وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن. قرؤا جميعًا أشدد وأشركه على الدعاء، وابن عامر وحده: أشدد وأشركه على الجواب، وفي مصحف ابن مسعود: أخي وأشدد، وعن أبي بن كعب: أشركه في أمري وأشدد به أزري، ويجوز فيمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل أخي مرفوعًا على الابتداء، وأشدد به خبره، ويوقف على هرون. الأزر: القوّة وأزره قواه أي: اجعله شريكي في الرسالة حتى نتعاون على عبادتك وذكرك، فإنّ التعاون لأنه مهيج الرغبات يتزايد به الخير ويتكاثر ﴿إنك كنت بنا بصيرًا﴾ أي: عالمًا بأحوالنا وبأن التعاضد مما يصلحنا، وأن هرون نعم المعين والشاد لعضدي بأنه أكبر مني سنًا وأفصح لسانًا.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾.

السؤال الطلبة فعل بمعنى مفعول كقولك: خبز بمعنى: مخبوز وأكل بمعنى: مأكول. الوحي إلى أم موسى إما أن يكون على لسان نبي في وقتها كقوله تعالى: ﴿وإذا أوحيت إلى الحواريين﴾[4] ويبعث إليها ملكًا لا على وجه النبوة كما بعث إلى مريم، أو يريها ذلك في المنام فتنبه عليه، أو يلهمها كقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾[5] أي: أوحينا إليها أمرًا لا سبيل إلى التوصل إليه، ولا إلى العلم به إلا بالوحي، وفيه مصلحة دينية، فوجب أن يوحى ولا يخل به، أي: هو مما يوحى لا محالة، وهو أمر عظيم مثله يحق بأن يوحى.

أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾.

﴿إن﴾ هي المفسرة؛ لأنّ الوحي بمعنى: القول. القذف مستعمل في معنى: الإلقاء والوضع ومنه قوله تعالى: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾[6] وكذلك الرمي قال:

غلام رماه الله بالحسن يافعًا

أي: حصل فيه الحسن، ووضعه فيه، والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة، لما يؤدي إليه من تنافر النظم.

فإن قُلْتَ: المقذوف في البحر هو: التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل؟ **قُلْتُ:** ما ضرك لو قالت: المقذوف والملقى هو: موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر. لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته أن لا تخطئ جرية ماء اليم الوصول به إلى الساحل وإلقاه إليه، سلك في ذلك سبيل المجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل: ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ روي: أنها جعلت في التابوت قطنًا محلوجًا فوضعته فيه وجصصته وقيرته ثم ألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على راس بركة مع آسية إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبي أصبح الناس وجهًا، فأحبه عدوّ الله حبًا شديدًا لا يتمالك أن يصبر عنه، وظاهر اللفظ: أنّ البحر ألقاه بساحله وهو: شاطئه؛ لأنّ الماء يسحله أي: يقشره، وقذف به ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة ﴿مني﴾ لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على إني أحببتك، ومن أحبه الله أحبته القلوب، وإما أن يتعلق بمحذوف هو: صفة لمحبة أي: محبة حاصلة، أو واقعة مني قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها، فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك. وروي: أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿على عيني﴾ لتربى ويحسن إليك، وأنا مراعيك وراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي، ولتصنع معطوف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك وترأم ونحوه، أو حذف معلله أي: ولتصنع فعلت ذلك، وقرئ: ولتصنع ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر، وقرئ: ولتصنع بفتح التاء والنصب أي: وليكون عملك وتصرفك على عين مني.

---

(1) سورة القصص، الآية: 34.

(2) سورة الزخرف، الآية: 52.

(3) قال الزيلعي: غريب جدًا 2/352.

(4) سورة المائدة، الآية: 111.

(5) سورة النحل، الآية: 68.

(6) سورة الأحزاب، الآية: 26.

إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾.

العامل[1] في ﴿إذ تمشي﴾ ألقيت أو تصنع، ويجوز أن يكون بدلاً من إذ أوحينا.

فإن قُلْتَ: كيف يصح البدل والوقتان مختلفان متباعدان؟ **قُلْتُ:** كما يصح وإن اتسع الوقت وتباعد طرفاه أن يقول لك الرجل: لقيت فلانًا سنة كذا، فتقول: وأنا لقيته إذ ذاك وربما لقيه هو في أولها، وأنت في آخرها. يروى: أن أخته واسمها: مريم جاءت متعرفة خبره، فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وذلك أنه كان لا يقبل ثدي امرأة، فقالت: ﴿هل أدلكم﴾ فجاءت بالأمّ فقبل ثديها. ويروى: أنّ آسية استوهبته من فرعون وتبنته وهي التي أشفقت عليه وطلبت له المراضع.

هي نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي قتله وهو ابن اثنتي عشرة سنة، اغتم بسبب القتل خوفًا من عقاب الله، ومن اقتصاص فرعون فغفر الله باستغفاره حين قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾[2] ونجاه من فرعون أن ينشب فيه أظفاره حين هاجر إلى مدين ﴿فنونًا﴾ يجوز أن يكون مصدرًا على فعول في المتعدّي كالشبور، والشكور، والكفور، وجمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداء بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجزة وبدرة أي: فتناك ضروبًا من الفتن. سأل سعيد بن جبير ابن عباس رضي الله عنه، فقال: خلصناك من محنة بعد محنة. ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير، وألقته أمّه في البحر، وهمّ فرعون بقتله، وقتل قبطيًا، وأجر نفسه عشر سنين، وضلّ الطريق، وتفرّقت غنمه في ليلة مظلمة، وكان يقول عند كل واحدة، فهذه فتنة يا ابن جبير، والفتنة المحنة وكل ما يشق على الإنسان وكل ما يبتل الله به عباده فتنة قال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[3] ﴿مدين﴾ على ثماني مراحل من مصر، وعن وهب: أنه لبث عند شعيب ثمانيًا وعشرين سنة منها مهر ابنته، وقضى أو في الأجلين.

وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾.

أي سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأستنبئك، وفي وقت بعينه قد وقته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر، وقيل: على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء وهو: رأس أربعين سنة. هذا تمثيل لما خوّله من منزلة التقريب والتكريم والتكليم، مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوا مع خصال فيه وخصائص أهلاً لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه ولا ألطف محلاً فيصطنعه بالكرامة والأثرة ويستخلصه لنفسه، ولا يبصر، ولا يسمع إلا بعينه وأذنه، ولا يأتمن على مكنون سره إلا سواء ضميره.

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾.

الوني: الفتور والتقصير وقرئ: تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع أي لا تنسياني ولا أزال منكما على ذكر حيثما تقلبتما، واتخذا ذكري جناحًا تصير أن به مستمدين بذلك العون والتأييد مني، معتقدين أنّ أمرًا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، ويجوز أن يريد بالذكر: تبليغ الرسالة، فإنّ الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها، فكان جديرًا بأن يطلق عليه اسم الذكر. روي: أنّ الله تعالى أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: ألهم ذلك.

فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾.

قرئ: ﴿ليِّنًا﴾ بالتخفيف والقول اللين نحو قوله تعالى: ﴿هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى﴾[4]؛ لأنّ ظاهرة الاستفهام والمشورة وعرض ما فيه من الفوز العظيم، وقيل: عداه شبابًا لا يهرم بعده، وملكًا لا ينزع منه إلا بالموت، وأن تبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته، وقيل: لا تجبهاه بما يكره، وألطفا له القول لما له من حق تربية موسى، ولما ثبت له من مثل حق الأبوّة، وقيل: كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس، وأبو الوليد، وأبو مرّة. والترجي لهما أي: اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوقه ويحتشد باقصى وسعه، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بانه لن يؤمن، إلزام الحجة وقطع المعذرة: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك﴾[5] أي: يتنكر ويتأمل فيبذل النصفة من نفسه والإذعان للحق ﴿أو يخشى﴾ أن يكون الأمر كما تصفان فيجرّه إنكاره إلى الهلكة.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾.

فرط: سبق وتقدّم، ومنه الفارط الذي يتقدّم الواردة،

---

(1) قال أحمد: والمعنى يوجب عمل، ولتصنع فيه؛ لأنّ معنى صنيعه على عين الله عز وجل تربيته مكلوءاً بكلاءته، مصوناً بحفظه، وزمان تربيته على هذه الحالة، هو زمان ردّه إلى أمه المشفقة الحنانة، وأما إلقاه المحبة عليه، فقيل ذلك أول ما أخذه فرعون وأحبه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة القصص، الآية: 16.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(4) سورة النازعات، الآيتان: 18 ـ 19.

(5) سورة طه، الآية: 134.

وفرس فرط يسبق الخيل، أي: نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة ويبادرنا بها. وقرئ*: ﴿يفرط﴾ من أفرطه غيره إذا حمله على العجلة، خافا أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقاب من شيطان، أو من جبروته واستكباره وادّعائه الربوبية، أو من به الرياسة، أو من قومه القبط المتمرّدين الذين حكى عنهم ربّ العزّة ﴿قال الملأ من قومه﴾[1] ﴿وقال الملأ من قومه﴾[2] وقرئ*[3]: يفرط من الإفراط في الأذية أي: نخاف أن يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة بالمعاجلة. أو يجاوز الحدّ في معاقبتنا إن لم يعاجل بنا على ما عرفا وجرّبا من شرارته وعتوّه ﴿أو أن يطغى﴾ بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه، وفي المجيء به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الأدب وتحاش عن التفوّه بالعظيمة ﴿معكما﴾ أي: حافظكما وناصركما ﴿أسمع وأرى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فافعل ما يوجب حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم وجائز أن لا يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرة وذهبت المبالاة بالعدوّ.

فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾.

كانت بنو إسرائيل في ملكة فرعون والقبط يعذبونهم بتكليف الأعمال الصعبة من الحفر والبناء ونقل الحجارة والسخرة في كل شيء مع قتل الولدان واستخدام النساء ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ جملة جارية من الجملة الأولى وهي إنا رسولاً ربك مجرى البيان والتفسير؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها التي هي المجيء بالآية إنما وحد قوله، بآية ولم يثن ومعه آيتان؛ لأنّ المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها فكأنه قال: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، وكذلك: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾[4] ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾[5] ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾[6] يريد: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾.

خاطب الإثنين ووجه النداء إلى أحدهما وهو: موسى؛ لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه لما عرف من فصاحة هارون والرنة في لسان موسى ويدل عليه قوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾[7].

قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾.

﴿خلقه﴾ أول مفعولي أعطى أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به أو ثانيهما أي: أعطي كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطي العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث جعل الحصان والحجر زوجين، والبعير والناقة والرجل والمرأة فلم يزاوج منها شيئًا غير جنسه وما هو على خلاف خلقه، وقرئ*: خلقه صفة للمضاف أو للمضاف إليه، أي: كل شيء خلقه الله لم يخله من عطائه وإنعامه ﴿ثم هدى﴾ أي: عرف كيف يرتفق بما أعطي، وكيف يتوصل إليه، ولله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبًا للحق.

قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾.

سأله عن حال من تقدم وخلا من القرون، وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد، فأجابه: بأنّ هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ لا يجوز على الله أن يخطئ شيئًا أو ينساه.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾.

يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له كقولك: ضللت الطريق والمنزل، وقرئ*: يضل من أضله إذا ضيعه، وعن ابن عباس: لا يترك من كفر به حتى ينتقم منه ولا يترك من وحده حتى يجازيه، ويجوز أن يكون فرعون قد نازعه في إحاطة الله بكل شيء وتبينه لكل معلوم فتعنت وقال: ما تقول في سوالف القرون وتمادي كثرتهم وتباعد أطراف عددهم كيف أحاط بهم وبأجزائهم وجواهرهم، فأجاب بأنّ كل كائن محبط به علمه، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان كما يجوز عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل أي: لا يضل كما تضل أنت ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 60.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 33.
(3) قال أحمد: وإذا روعي في الأدب، إطلاق هذه اللفظة عن مجرور بها، فلا يبعد أن يراعى في الأدب بالاعتراف، بتقلد منة الله عز وجلّ زيادة المجرور في قوله: ﴿اشرح لي صدري﴾ كما = قدّمته آنفاً، والله أعلم.
(4) سورة الأعراف، الآية: 105.
(5) سورة الشعراء، الآية: 154.
(6) سورة الشعراء، الآية: 30.
(7) سورة الزخرف، الآية: 52.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾.

﴿الذي جعل﴾ مرفوع صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه **﴿مهدًا﴾** قراءة أهل الكوفة أي: مهدها مهدًا، أو يتمهدونها فهي لهم كالمهد وهو: ما يمهد للصبي **﴿وسلك﴾** من قوله تعالى: ﴿ما سلككم في سقر﴾[1] **﴿سلكناه﴾**[2] **﴿نسلكه في قلوب المجرمين﴾**[3] أي: حصل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري **﴿فأخرجنا﴾** انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء على إرادته، ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾[4] ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها﴾[5] ﴿أمّن خلق السمٰوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾[6] وفيه تخصيص أيضًا بأنا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحد **﴿أزواجًا﴾** أصنافًا سميت بذلك؛ لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض **﴿شتى﴾**[7] صفة للأزواج جمع شتيت كمريض، ومرضى، ويجوز أن يكون صفة للنبات، والنبات مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني: أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم قالوا: من نعمته عزّ وعلا أن أرزاق العباد إنما تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله أي: قائلين **﴿كلوا وارعوا﴾** حال من الضمير في فأخرجنا المعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها.

❁ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾.

أراد: بخلقهم من الأرض خلق أصلهم وهو: آدم عليه السلام منها، وقيل: إن الملك لينطلق فيأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة معًا. وأراد بإخراجهم منها أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلط بالتراب، ويردّهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعًا﴾[8] عند الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشًا ومهادًا يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤا، وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم، وهي أصلهم الذي منه تفرعوا، وأمهم التي منها ولدوا، ثم هي كفايتهم إذا ماتوا، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة»[9].

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾.

﴿أريناه﴾ بصرناه أو عرفناه صحتها ويقناه بها وإنما كذب لظلمه كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا﴾[10] وقوله تعالى: ﴿لقد علمت ما أنزل لهؤلاء إلا رب السمٰوات والأرض بصائر﴾[11] وفي قوله تعالى: **﴿آياتنا كلها﴾** وجهان: أحدهما: أن يحذي بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام لو قيل: الآيات كلها أعني أنها كانت لا تعطي إلا تعريف العهد والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام: العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل، والثاني: أن يكون موسى قد أراه آياته وعدد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبي صادق لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به فكذبها جميعًا **﴿وأبى﴾** أن يقبل شيئًا منها، وقيل: فكذب الآيات وأبى قبول الحق.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾.

يلوح من جيب قوله: **﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك﴾** أن فرائصه كانت ترعد خوفًا مما جاء به موسى

---

(1) سورة المدثر، الآية: 42.
(2) سورة الشعراء، الآية: 200.
(3) سورة الحجر، الآية: 12.
(4) سورة الأنعام، الآية: 99.
(5) سورة فاطر، الآية: 27.
(6) سورة النمل، الآية: 60.
(7) قال أحمد: الالتفات إنما يكون في كلام المتكلم الواحد، يصرف كلامه على وجوه شتى، وما نحن فيه ليس من ذلك، فإنّ الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون: ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ ثم قوله: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ إما أن يجعل من قول موسى، فيكون من باب قول خواص الملك: أمرنا وعمرنا، وإنما يريدون الملك، وليس هذا بالتفات، وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه، فليس التفاتاً أيضاً، وإنما =
= هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب، وعلى هذا التأويل ينبغي للقارئ أن يقف وقيفة، عند قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ليستقر بانتهاء الحكاية ويحتمل وجهاً آخر، وهو أنّ موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء﴾ فأخرج به ﴿أزواجاً من نبات شتى﴾ فلما حكاه الله تعالى عنه أسند الضمير إلى ذاته؛ لأنّ الحاكي هو المحكي في كلام موسى، فمرجع الضميرين واحد، وهذا الوجه وجه حسن دقيق الحاشية، وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات، لكن الزمخشري لم يعنه، والله أعلم.
(8) سورة المعارج، الآية: 43.
(9) رواه ابن أبي شيبة، (الحديث رقم: 6) والطبراني في الصغير (الحديث رقم: 408).
(10) سورة النمل، الآية: 14.
(11) سورة الإسراء، الآية: 102.

عليه السلام لعلمه وإيقانه أنه على الحق، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وأن مثله لا يخذل ولا يقل ناصره، وأنه غالبه على ملكه لا محالة، وقوله: ﴿بسحرك﴾ تعلل وتحير وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرًا لا يقدر أن يخرج ملكًا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر.

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾.

لا يخلو الموعد[1] في قوله: ﴿فاجعل بيننا وبينك موعدًا﴾ من أن يجعل زمانًا أو مكانًا أو مصدرًا فإن جعلته زمانًا نظرًا في أن قوله تعالى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ مطابق له لزمك شيآن أن تجعل الزمان مخلفًا، وأن يعضل عليك نصب مكانًا، وإن جعلته مكانًا لقوله تعالى: ﴿مكانًا سوى﴾ لزمك أيضًا أن توقع الأخلاف على المكان، وأن لا يطابق قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾، وقراءة الحسن: غير مطابقة له مكانًا وزمانًا جميعًا؛ لأنه قرأ: يوم الزينة بالنصب فبقي أن يجعل مصدرًا بمعنى: الوعد ويقدر مضاف محذوف أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في تخلفه للموعد ومكانًا بدل من المكان المحذوف.

فإن قُلْتَ: فكيف طابقه قوله: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾ ولابد من أن تجعله زمانًا، والسؤال واقع عن المكان لا عن الزمان **قُلْتُ:** هو: مطابق معنى وإن لم يطابق لفظًا؛ لأنهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه مشتهر باجتماعهم فيه في ذلك اليوم، فذكر الزمان علم المكان، وأما قراءة الحسن: فالموعد فيها مصدر لا غير، والمعنى: إنجاز وعدكم يوم الزينة، وطباق هذا أيضًا من طريق المعنى، ويجوز أن لا يقدر مضاف محذوف ويكون المعني: اجعل بيننا وبينك وعدًا لا نخلفه.

فإن قُلْتَ: فبم ينتصب ﴿مكانًا﴾ **قُلْتُ:** بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر.

فإن قُلْتَ: فكيف يطابقه الجواب؟ **قُلْتُ:** أما على قراءة الحسن: فظاهر، وأما على قراءة العامة: فعلى تقدير: وعدكم وعد يوم الزينة، ويجوز على قراءة الحسن أن يكون موعدكم مبتدأ بمعنى الوقت، وضحى خبره على نية التعريف فيه؛ لأنه ضحى ذلك اليوم بعينه، وقيل في يوم الزينة: يوم عاشوراء، ويوم النيروز، ويوم عيد كان لهم في كل عام، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقًا ويتزينون ذلك اليوم. قرئ: ﴿نخلفه﴾ بالرفع على الوصف الموعد، وبالجزم على جواب الأمر وقرئ: ﴿سوىً﴾ بالكسر والضم ومنونًا وغير منون، ومعناه: منصفًا بيننا وبينك، عن مجاهد: وهو من الاستواء؛ لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، ومن لم ينون فوجهه: أن يجري الوصل مجرى الوقف. قرئ: ﴿وأن تحشر الناس﴾ بالتاء والياء، يريد وأن تحشر يا فرعون وأن يحشر اليوم، ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون نكره بلفظ الغيبة أما على العادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القوم بقوله: ﴿موعدكم﴾ وجعل ﴿يحشر﴾ لفرعون، ومحل أن يحشر الرفع أو الجرّ عطفًا على اليوم أو الزينة، وإنما واعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الخاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حدّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾.

﴿لا تفتروا على الله كذبًا﴾ أي: لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرًا. قرئ: ﴿فيسحتكم﴾ والسحت لغة أهل الحجاز، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم ومنه قول الفرزدق: إلا مسحتًا أو مجلف في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه؛ عن ابن عباس: إن نجواهم إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة: إن كان ساحرًا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر، وعن وهب: لما قال:

---

(1) قال أحمد: وفي إعماله، وقد وصف بقوله: ﴿لا نخلفه﴾ بعد، إلا أن تجعل الجملة معترضة، فهو مع ذلك لا يخلو من بعد، من حيث أن وقوع الجملة عقيب النكرة، بحيزها الشأن أن تكون صفة، والله أعلم، ويحتمل عندي وجه آخر أخصر وأسلم، وهو: أن يجعل موعد اسم مكان، فيطابق مكاناً، ويكون بدلاً منه، ويطابق الجواب بالزمان بالتقرير الذي ذكره، ويبقى عود الضمير، فنقول: هو والحالة هذه، عائد على المصدر المفهوم من اسم المكان؛ لأن حروفه فيه، والموعد إذا كان اسم مكان، فحاصله مكان وعد، كما إذا كان اسم زمان، فحاصله زمان وعد، وإذا جاز رجوع الضمير إلى ما دلت قوّة الكلام عليه، وإن لم يكن منطوقاً به بوجه، فرجوعه إلى ما هو كالمنطوق به أولى، ومما يحقق ذلك أنهم قالوا: مر صدق كان خيراً له، يعنون: كان الصدق خيراً له، فأعادوا = الضمير على المصدر، وقدروه منطوقاً به للنطق، بالفعل الذي هو مشتق منه، وإذا أوضح ذلك، فاسم المكان مشتق من المصدر اشتقاق الفعل منه، فالنطق به كاف في إعادة الضمير على مصدره، والله أعلم، وعلى هذين التاويلين يكون جواب موسى عليه السلام من جوامع كلم الأنبياء؛ لأنه سئل أن يواعدهم مكاناً، فعلم أنهم لا بد أن يسألوه مواعدة على زمان أيضاً، فأسلف الجواب عنه، وضمنها جواباً مفرداً. ولقائل أن يقول: إن كان المسؤول منه المواعدة على المكان، فلم أجاب بالزمان الذي لم يسأل عنه صريحاً، وجعل جواب ما سئل عنه مضمناً. (وجوابه) والله أعلم أن يقال: اكتفى بقرينة السؤال، عن صريح الجواب، وأما ما لم يسئل عنه، فلو ضمنه، لم يفهم قصده إليه، إذ لا قرينة تدل عليه، والله أعلم.

﴿ويلكم﴾ الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر، والظاهر أنهم تشاوروا في السر وتجانبوا أهداب القول، ثم قالوا: ﴿إن هٰذان لساحران﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفًا من غلبتهما وتثبيطًا للناس عن اتباعهما. قرأ أبو عمرو: ﴿إن هٰذين لساحران﴾ على الجهة الظاهرة المكشوفة، وابن كثير، وحفص: إن هٰذان لساحران على قولك إن زيد لمنطلق، واللام هي الفارقة بين إنّ النافية والمخففة من الثقيلة، وقرأ أبيّ: إن ذان إلا ساحران، وقرأ ابن مسعود: أن هٰذان ساحران بفتح أن وبغير لام بدل من النجوى، وقيل في القراءة المشهورة: إن هٰذان لساحران هي: لغة للحرث بن كعب جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي آخرها ألف كعصا وسعدى فلم يقلبوها ياء في الجرّ والنصب، وقال بعضهم: أن بمعنى: نعم وساحران خبر مبتدأ محذوف واللام داخلة على الجملة تقديره: لهما ساحران، وقد أعجب به أبو إسحاق. سموا مذهبهم الطريقة ﴿المثلى﴾ والسنة الفضلى ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾[1] وقيل: أرادوا أهل طريقتهم المثلى وهم: بنو إسرائيل، لقول موسى: ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل﴾[2] وقيل: الطريقة اسم لوجوه الناس وأشرافهم الذين هم قدوة لغيرهم يقال: هم طريقة قومهم، ويقال للواحد أيضًا، هو طريقة قومه.

فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾.

﴿فاجمعوا كيدكم﴾ يعضده قوله: ﴿فجمع كيده﴾[3] وقرئ*: فاجمعوا كيدكم أي: ازمعوه واجعلوه مجمعًا عليه حتى لا تختلفوا ولا يخلف عن واحد منكم كالمسئلة المجمع عليها. أمروا بأن يأتوا صفًا أهيب في صدور الرائين، وروي أنهم كانوا سبعين ألفًا مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقد أقبلوا إقبالة واحدة، وعن أبي عبيدة أنه فسر الصف: بالمصلى؛ لأنّ الناس يجتمعون فيه لعيدهم وصلاتهم مصطفين. ووجه صحته أن يقع علمًا لمصلى بعينه، فأمروا بأن يأتوه، أو يراد: ائتوا مصلى من المصليات ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ اعتراض يعني: وقد فاز من غلب.

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾.

أن مع ما بعده إما منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه[4]: اختر أحد الأمرين: أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، وهذا التخير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له، وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم، وكأن الله عزّ وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أولاً، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه، وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين. يقال في إذا هذه: إذا المفاجأة، والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبًا لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصًا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: فإذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى: على مفاجاته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي وقرئ*: ﴿عصيهم﴾ بالضم وهو الأصل والكسر اتباع ونحوه: دلى ودلى وقسى وقسى، وقرئ*: ﴿تخيل﴾ على إسناده إلى ضمير الحبال والعصيّ وإبدال قوله ﴿أنها تسعى﴾ من الضمير بدل الاشتمال كقولك: أعجبني زيد كرمه، وتخيل على كون الحبال والعصيّ مخيلة سعيها وتخيل بمعنى: تتخيل وطريقة طريق تخيل وتخيل على أنّ الله تعالى هو المخيل للمحنة والابتلاء. يروى: أنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزّت فخيلت ذلك.

فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾.

إيجاس الخوف إضمار شيء منه، وكذلك توجس الصوت تسمع نبأه يسيرة منه، وكأن ذلك لطبع الجبلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلوّ من مثله، وقيل: خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه ﴿إنك أنت الأعلى﴾ فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير وبلام التعريف وبلفظ العلوّ وهو: الغلبة الظاهرة وبالتفضيل، وقوله[5]: ﴿ما في يمينك﴾ ولم يقل عصاك

---

(1) سورة الروم، الآية: 32.

(2) سورة طه، الآية: 47.

(3) سورة طه، الآية: 60.

(4) قال أحمد: وقبل ذلك تأنّبوا معه، بقولهم: فاجعل بينا وبينك موعداً لا نخلفه، ففوّضوا ضرب الموعد إليه، وكما ألهم الله عزّ وجلّ موسى ههنا، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم، ليكون إلقاؤه العصا بعد قذفا بالحق على الباطل، فيدمغه، فإذا هو زاهق كذلك، ألهمه من الأوّل أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد، فيكون أفصح لكيدهم، وأهتك لستر =

= حرمهم، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وإنما المقصود بتحقيرها في جنب القدرة، تحقير كيد السحرة بطريق الأولى؛ لأنها إذا كانت أعظم منة، وهي حقيرة في جانب قدرة الله تعالى، فما الظنّ بكيدهم، وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة، ولأصحاب البلاغة طريق في علو المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح، وقد قهره، واستولى عليه، فصغر الله أمر العصا، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها في طرفة عين.

جائز أن يكون تصغيرًا لها أي: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها، وجائز[1] أن يكون تعظيمًا لها أي: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإنّ في يمينك شيئًا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عنده، فألقه يتلقفها بإذن الله يمحقها، وقرئ: ﴿**تلقف**﴾ بالرفع على الاستئناف أو على الحال أي: ألقها متلقفة وقرئ: تلقف بالتخفيف ﴿**صنعوا**﴾ ههنا بمعنى: زوروا وافتعلوا كقوله تعالى: ﴿تلقف ما يأفكون﴾[2] قرئ: ﴿**كيد ساحر**﴾ بالرفع والنصب. فمن رفع فعلى أنّ ما موصولة، ومن نصب فعلى أنها كافة، وقرئ: كيد سحر بمعنى: ذي سحر، أو نوي سحر، أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته، أو بين الكيد لأنه يكون سحرًا وغير سحر كما تبين المائة بدرهم ونحوه: علم فقه، وعلم نحو.

فإن قُلْتَ: لم وحد ساحر ولم يجمع؟ **قُلْتُ:** لأنّ القصد في هذ الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخيل أنّ المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله: ﴿**ولا يفلح الساحر**﴾ أي: هذا الجنس.

فإن قُلْتَ: فلم نكر أوّلاً وعرف ثانيًا؟ **قُلْتُ:** إنما نكر من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره في نفسه كقول العجاج

في سعي دنيا طالما قد مدت

وفي حديث عمر رضي الله عنه: لا في أمر دنيا ولا في أمر آخرة[3] المراد تنكير الأمر كأنه قيل: إنّ ما صنعوا كيد سحري وفي سعي دنيويّ وأمر دنيويّ وآخري. ﴿**حيث أتى**﴾ كقولهم: حيث سير وأية سلك وأينما كان.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

سبحان[4] الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين، وروي: أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها، وعن عكرمة: لما خرّوا سجدًا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

﴿**لكبيركم**﴾ لعظيمكم يريد: أنه أسحرهم وأعلاهم درجة في صناعتهم، أو لمعلمكم من قول أهل مكة للمعلم: أمرني كبيري، وقال لي كبيري كذا، يريدون معلمهم وأستاذهم في القرآن وفي كل شيء. قرئ: ﴿**فلأقطعنّ**﴾ ولأصلبنّ بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأنّ كل واحد من العضو من خالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال، ومن لابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو العضو لا من وفاقه إياه، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال أي: لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضًا فقد اتصفت بالاختلاف. شبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعي في وعائه فلذلك قيل: في جذوع النخل ﴿**أينا**﴾ يريد نفسه لعنة الله وموسى صلوات الله عليه بدليل قوله: ﴿**آمنتم له**﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى كقوله:﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾[5] وفيه نفاجة باقتداره وقهره وما ألفه وضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى عليه السلام واستضعاف له مع الهزء به؛ لأنّ موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

---

(1) قال أحمد: وههنا لطيفة، وهو أنه تلقى من هذا النظم أوّلاً قصد التحقير، وثانياً قصد التعظيم، فلا بدّ من نكتة تناسب الأمرين، وتلك، والله أعلم، هي إرادة المنكور مبهماً؛ لأنّ ما في يمينك أبهم من عصاك، وللعرب مذهب في التنكير والإبهام، والإجمال تسلكة مرة، لتحقير شأن ما أبهمته، وأنه عند الناطق به، أهون من أن يخصه ويوضحه، ومرّة لتعظيم شأنه، وليؤنن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان، يعني فيه الزمر والإشارة، فهذا هو الوجه في إسعاده بهما جميعاً، وعندي في الآية، وجه سوى قصد التعظيم والتحقير، والله أعلم، وهو أنّ موسى عليه السلام أوّل ما علم أنّ العصا آية من الله تعالى، عندما سأله عنها بقوله تعالى: ﴿وما تلك بمينك يا موسى﴾ ثم أظهر له تعالى آيتها، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها، قال تعالى: ﴿وألق ما في يمينك﴾ ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذي قال الله تعالى له: ﴿وما تلك بيمينك﴾ وقد أظهر له آيتها، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به، وقت ظهور آيتها، وذلك مقام = يناسب التأنيس والتثبيت، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) سورة الأعراف، الآية: 117.

(3) قال أحمد: وفي تكرير لفظ الإلقاء والعدول عن مثل، فسجد السحرة إيقاظ السامع لألطاف الله تعالى، في نقله عباده من غاية الكفر والعناد، إلى نهاية الإيمان والسداد، وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد، إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين، وهو يناسب ما قدّمته آنفاً، في إيجاز الخطاب في قوله: ﴿وألق ما يمينك﴾ و ﴿ما تلك بيمينك﴾ فتأمّله، فإنّ الحق حسن متناسب، والله الموفق.

(4) سورة التوبة، الآية: 61.

(5) قال أحمد: ووجه آخر، وهو: أن قدر كل جزء من أجزاء الطريق، طريقاً، وقد كانت بهذه المثابة؛ لأنها كانت اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، والله أعلم.

obeikandl.com

خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾.

﴿والذي فطرنا﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم. قرئ: **﴿تقضي هذه الحياة الدنيا﴾** ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به كقولك في صمت يوم الجمعة: صيم يوم الجمعة، وروي: أن السحرة يعني: رؤوسهم كانوا اثنين وسبعين الإثنان من القبط، والسائر من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر، وروي: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه.

إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾.

﴿تزكى﴾ تطهر من أدناس الذنوب، وعن ابن عباس قال: لا إله إلا الله قيل: في هذه الآيات الثلاث هي حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله لا على وجه الحكاية.

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾.

﴿فاضرب لهم طريقًا﴾ فاجعل[1] لهم من قولهم: ضرب له في ماله سهمًا، وضرب اللبن عمله اليبس مصدر وصف به يقال: يبس يبسًا ويبسًا، ونحوهما: العدم والعدم، ومن ثم وصف به المؤنث فقيل: شاتنا يبس، وناقتنا يبس إذا جف لبنها، وقرئ: يبسًا ويابسًا، ولا يخلو اليبس من أن يكون مخففًا عن اليبس، أو صفة على فعل، أو جمع يابس كصاحب وصحب، وصف به الواحد تأكيدًا كقوله: ومعي جياعًا، جعله لفرط جوعه كجماعة جياع **﴿لا تخاف﴾** حال من الضمير في فاضرب وقرئ: لا تخف على الجواب وقرأ أبو حيوة **﴿دركًا﴾** بالسكون، والدرك والدرك أسمان من الإدراك أي: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك، في **﴿ولا تخشى﴾** إذا قرئ: لا تخف ثلاثة أوجه: أن يستأنف كأنه قيل: وأنت لا تخشى أي: ومن شأنك أنك آمن لا تخشى، وأن لا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله:

﴿فأضلونا السبيلا﴾[2] ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾[3] وأن يكون مثل قوله:

كأن لم ترى قبلي أسيرًا يمانيًا

فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾.

﴿ما غشيهم﴾ من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة أي: غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله وقرئ: فغشاهم من اليم ما غشاهم والتغشية: التغطية وفاعل غشاهم إما الله سبحانه، أو غشاهم، أو فرعون؛ لأنه الذي ورط جنوده وتسبب لهلاكهم. وقوله **﴿وما هدى﴾** تهكم[4] به في قوله: **﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾**[5].

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾.

﴿يا بني إسرائيل﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك آل فرعون وقيل: هو للذين كانوا منهم في عهد رسول الله ﷺ ممن الله عليهم بما فعل بآبائهم، والوجه هو: الأول أي: قلنا يا بني إسرائيل، وحذف القول كثير في القرآن وقرئ: **﴿أنجيتكم﴾** إلى رزقتكم وعلى لفظ الوعد والمواعدة وقرئ: **﴿الأيمن﴾** بالجر على الجوار نحو: حجر ضب خرب. ذكرهم النعمة في نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما واعد موسى صلوات الله عليه من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة في الألواح، وإنما عدي المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم، وإليهم رجعت منافعها التي قام بها دينهم وشرعهم، وفيما أفاطن عليهم من سائر نعمه وأرزاقه، طغيانهم في النعمة أن يتعدوا حدود الله فيها بأن يكفروها، ويشغلهم اللهو والتنعم عن القيام بشكرها، وأن ينفقوها في المعاصي، وأن يزووا حقوق الفقراء فيها، وأن يسرفوا في إنفاقها، وأن يبطروا فيها ويأشروا ويتكبروا، قرئ: **﴿فيحل﴾** وعند عبد الله: لا يحلن **﴿ومن يحلل﴾** المكسور في معنى: الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى: **﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾**[6] والمضموم في معنى: النزول[7]،

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 67.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 10.

(3) قال أحمد: فإن قلت التهكم: أن يأتي بعبارة، والمقصود عكس مقتضاها، كقولهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ وغرضهم وصفه بضد هذين الوصفين، وأما قوله تعالى: ﴿وما هدى﴾ فمضمونه هو الواقع، فهو حينئذ مجرد إخبار عن عدم هدايته لقومه، قلت: هو كذلك، ولكن العرف مثل: ما هدى زيد عمراً ثبوت كون زيد عالماً بطريق الهداية، مهتدياً في نفسه، ولكنه لم يهد عمراً، وفرعون أضل الضالين في نفسه، فكيف يتوهم أنه يهدي غيره، وتحقيق ذلك أنّ قوله تعالى: ﴿وأضلّ فرعون قومه﴾ كاف في= الإخبار بعدم هدايته لهم، مع مزيد إضلاله إياه، فإن من لا يهدي، قد لا يضل، فيكون كافاً، وإذا تحقق غناء الأوّل في الإخبار، تعين كون الثاني لمعنى سواه، وهو: التهكم، والله أعلم.

(4) قوله تعالى: ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ (قال: الغضب، عقوبة الله تعالى لهم إلخ).

(5) سورة غافر، الآية: 29.

(6) سورة البقرة، الآية: 196.

(7) قال أحمد: لا يسعه أن يحمل الغضب، إلا على العقوبة؛ لأنه ينفي صفة الإرادة، في جملة ما ينفونه من صفات الكمال، وأمّا على قاعدة السنة، فيجوز أن يكون المراد من الغضب: إرادة العقوبة=

وغضب الله: عقوباته ولذلك وصف بالنزول ﴿هوى﴾ هلك وأصله أن يسقط من جبل فيهلك قالت:

هوى من رأس مرقبة ... ففتت تحتها كبده

ويقولون: هوت أمّه، أو سقط سقوطًا لا نهوض بعده.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

الاهتداء هو: الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو: التوبة والإيمان والعمل الصالح ونحوه قوله تعالى: ﴿إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾[1] وكلمة التراخي دلت على تباين المنزلتين دلالة على تباين الوقتين في جاءني زيد، ثم عمر، وأعني أنّ منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه؛ لأنها أعلى منها وأفضل.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وما أعجلك﴾[2] أي شيء عجل بك عنهم على سبيل الإنكار، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب، ثم تقدمهم شوقًا إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به بناء على اجتهاده وظنه أنّ ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى، وزل عنه أن عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرًا إلى دواعي الحكمة وعلمًا بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم: النقباء وليس لقول: من جوز أن يراد جميع قومه، وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح يأباه قوله ﴿وهم أولاء على أثري﴾ وعن أبي عمرو ويعقوب: إثري بالكسر، وعن عيسى بن عمر: أثري بالضم، وعنه أيضًا: أولي بالقصر. والأثر أفصح من الأثر أما الأثر فمسموع في فرند السيف مدوّن في الأصول يقال: أثر السيف وأثره وهو بمعنى: الأثر غريب.

فإن قُلْتَ: ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك، وقوله: ﴿هم أولاء على أثري﴾ كما ترى غير منطبق عليه؟ **قُلْتُ:** قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين: أحدهما: إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدّم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدّم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبة بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفًا.

فإن قُلْتَ: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها، وقالوا: قد أكملنا العدّة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمة: ﴿إنا قد فتنا قومك﴾؟ **قُلْتُ:** قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته. أو افترض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك فكان بدء الفتنة موجودًا. قرئ: ﴿وأضلهم السامري﴾ أي: وهو أشدّهم ضلالاً؛ لأنه ضال مضل وهو منسوب إلى قبلية من بني إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، وقيل: كان من أهل باجرما، وقيل: كان علجًا من كرمان واسمه موسى بن ظفر وكان منافقًا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

الأسف الشديد الغضب ومنه قوله عليه السلام في موت الفجاة: «راحة للمؤمن وأخذة أسف للكافر»[3] وقيل: الحزين.

فإن قُلْتَ: متى رجع إلى قومه **قُلْتُ:** بعد ما استوفى الأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة. وعدهم الله سبحانه أن

= فيكون من أوصاف الذات، ويحتمل أن يراد به: معاملتهم بما يعامل به من غضب عليه شاهداً، فيكون من صفات الأفعال، وأما وصفه بالحلول، فلا يتأتى حمله على الإرادة، ويكون بمنزلة قوله عليه الصلاة والسلام: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»، على التأويل المعروف، أو عبر عن حلول أثر الإرادة، بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثر، كما يقول الناظر إلى عجيب مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله، يعني: أثر القدرة، لا نفسها، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على ثري وعجلت إليك رب لترضى﴾ (قال فيه: إن قلت: سئل عن سبب العجلة إلخ).

(1) سورة فصلت، الآية: 30، وسورة الأحقاف، الآية: 13.

(2) قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم = أن يعلم موسى أدب السفر، وهو: أن ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير، ليكون نظره محيطاً بطائفته، ونافذاً فيهم، ومهيمناً عليهم، وهذا المعنى لا يحصل في تقدّمه عليهم، ألا ترى الله عزّ وجل كيف علم هذا الأدب لوطاً، فقال: ﴿واتبع أدبارهم﴾ فأمره أن يكون أخيرهم، على أنّ موسى عليه السلام إنما أعفل هذا الأمر، مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى له ﷻ.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 3/598 (الحديث رقم: 6781)، وأبو داود في كتاب: الجنائز، باب: موت الفجاة (الحديث رقم: 3110).

يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور ولا وعد أحسن من ذلك وأجمل، حكي لنا أنها كانت ألف سورة، كل سورة ألف آية، يحمل أسفارها سبعون جملاً ﴿العهد﴾ الزمان يريد مدّة مفارقته لهم يقال: طال عهدي بك أي: طال زماني بسبب مفارقتك، وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل.

قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾.

﴿بملكنا﴾ قرئ: بالحركات الثلاث: أي ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا أي: لو ملكنا أمرنا وخلينا وراءنا لما أخلفناه، ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده. أي: حملنا أحمالاً من حليّ القبط التي استعرناها منهم، أو أرادوا بالأوزار أنها آثام وتبعات؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ ﴿فقذفناها﴾ في نار السامري التي أوقدها في الحفرة، وأمرنا أن نطرح فيها الحليّ، وقرئ: حملنا، ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ أراهم أنه يلقي حليًا في يده مثل ما ألقوا: وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت موائًا صار حيوانًا.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾.

﴿فأخرج لهم﴾ السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحليّ التي سبكتها النار يخور كما تخور العجاجيل.

فإن قُلْتَ: كيف أثرت تلك التربة في إحياء الموات؟ **قُلْتُ:** أما يصحّ أن يؤثر الله سبحانه روح القدس بهذه الكرامة الخاصة كما أثره بغيرها من الكرامات وهي: أن يباشر فرسه بحافره تربة إذا لاقت تلك التربية جمادًا أنشأه الله إن شاء عند مباشرته حيوانًا، ألا ترى كيف أنشأ المسيح من غير أب عند نفخه في الدرع[1].

فإن قُلْتَ: فلم خلق الله العجل من الحليّ حتى صار فتنة لبني إسرائيل وضلالاً؟ **قُلْتُ:** ليس بأوّل محنة محن الله بها عباده لـ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين﴾[2] ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب، والمراد بقوله: ﴿إنا قد فتنا قومك﴾[3] هو: خلق العجل للامتحان أي: امتحانهم بخلق العجل، وحملهم السامري على الضلال وأوقعهم فيه حين قال لهم: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ أي: فنسي موسى أن يطلبه هٰهنا وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الظاهر ﴿يرجع﴾ من رفعه، فعلى أن أن مخففة من الثقيلة، ومن نصب فعلى أنها الناصبة للأفعال.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾.

﴿من قبل﴾ من قبل أن يقول لهم السامري ما قال: كانهم أوّل ما وقعت عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتتنوا به واستحسنوه، فقيل أن ينطق السامري بادرهم هٰرون عليه السلام بقوله: ﴿إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمٰن﴾ لا مزيدة والمعنى: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر عن الكفر والمعاصي؟ وهلا قاتلت من كفر بمن آمن؟ ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهد؟ أو مالك لم تلحقني؟.

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾.

قرئ: ﴿بلحيتي﴾ بفتح اللام وهي: لغة أهل الحجاز، كان موسى صلوات الله عليه زجلاً حديدًا مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دون الله بعد ما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التوراة، لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة غضبًا لله واستنكافًا وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضًا على شعر رأسه وكان أقرع وعلى شعر وجهه يجره إليه. أي: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فاستانيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك المتلافي برأيك، وحشيت عتابك على إطراح ما وصيتني به من ضم النشر وحفظ الدهماء، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾.

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئًا ما خطبك؟ فمعناه: ما طلبك له.

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ

---

(1) قال أحمد: هذا السؤال وجوابه تقدماً له في أول سورة الأعراف، وقد أوضحنا أن الله تعالى إنما تعبدنا بالبحث عن علل أحكامه، لا علل أفعاله، وجواب هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ فهذا الأمر جائز، وقد أخبر الله تعالى بوقوعه، فلا ينبغي وراء ذلك سبيلاً، لكن الزمخشري تقتضي= = قاعدته، في وجوب رعاية المصالح على الله تعالى، وتحتم هداية الخلق عليه، أن يؤوّل ذلك، ويحرفه، فذرهم وما يفترون.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 27.

(3) سورة طه، الآية: 85.

ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾.

قرئ: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ بالكسر والمعنى: علمت ما لم تعلموه وفطنت ما لم تفطنوا له. قرأ الحسن ﴿قبضة﴾ بضم القاف وهي: اسم المقبوض كالغرفة والمضغة، وأمّا القبضة فالمرة من القبض وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير، وقرأ أيضًا: فقبصت قبصة بالصاد المهملة، الضاد بجميع الكف، والصا بأطراف الأصابع، ونحوهما: الخضم والقضم، الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه. قرأ ابن مسعود: من أثر فرس الرسول.

فإن قُلْتَ: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟ **قُلْتُ:** حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إنّ لهذا شأنًا فقبض قبضة من تربة موطئة، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ولعله لم يعرف أنه جبريل.

قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾.

عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعًا كليًا، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضًا، وإذا اتفق أن يماس أحدًا رجلاً أو امرأة حم الماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرام، ومن الوحشي النافر في البرية، ويقال: إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم، وقرئ: ﴿لا مساس﴾ بوزن فجار، ونحوه قولهم في الظباء إذا وردت الماء: فلا عباب، وإن فقدته: فلا أباب، وهي أعلام للمسة والعبة والأبة وهي المرّة من الأب وهو: الطلب ﴿لن تخلفه﴾ أي: لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وقرئ: لن تخلفه وهذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفًا قال الأعشى:

أثوى وأقصر ليله ليزوّدا ... فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

وعن ابن مسعود: نخلفه بالنون أي: لن يخلفه الله كأنه حكى قوله عزّ وجل كما مر في: ﴿لأهب لك﴾[1] ﴿ظلت﴾ وظلت وظللت والأصل ظللت فحذفوا اللام الأولى ونقلوا حركتها إلى الظاء ومنهم من لم ينقل ﴿لنحرقنه﴾ ولنحرقنه. ولنحرقنه وفي حرف ابن مسعود: لنذبحنه ولنحرقنه ولنحرقنه القراءتان من الإحراق، وذكر أبو علي الفارسي في لنحرقنه: أنه يجوز أن يكون حرق مبالغة في حرق إذا برد بالمبرد وعليه القراءة الثالثة وهي: قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿لننسفنه﴾ بكسر السين وضمها وهذه عقوبة ثالثة وهي: إبطال ما افتتن به وفتن، وإهدار سعيه وهدم مكره ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾[2].

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾.

قرأ طلحة: الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن رب العرش ﴿وسع كل شيء علمًا﴾ وعن مجاهد، وقتادة: وسّع، ووجهه أن وسع متعدّ إلى مفعول واحد وهو كل شيء، وأمّا علمًا فانتصابه على التمييز وهو في المعنى فاعل، فلما نقل إلى التعدية إلى مفعولين فنصبهما معًا على المفعولية؛ لأنّ المميز فاعل في المعنى: كما تقول في خاف زيد عمرًا: خوفت زيدًا عمرًا فترد بالنقل ما كان فاعلاً مفعولاً.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾.

الكاف في ﴿كذلك﴾ منصوب المحل وهذا موعد من الله عزّ وجل لرسوله ﷺ أي: مثل ذلك الاقتصاص، ونحو ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون، نقصّ عليك من سائر أخبار الأمم وقصصهم وأحوالهم، تكثيرًا لبيناتك وزيادة في معجزاتك، وليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة، وتتأكد الحجة على من عاند وكابر، وأن هذا الذكر الذي آتيناك يعني: القرآن مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار، لذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة والسعادة لمن أقبل عليه ومن أعرض عنه فقال هلك وشقي.

مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾.

يريد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب، وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحمل وينقض ظهره ويلقي عليه بهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو: الإثم، وقرئ: يحمل.

جمع ﴿خالدين﴾ على المعنى؛ لأنّ ﴿من﴾ مطلق متناول لغير معرض واحد، وتوحيد الضمير في أعرض وما بعده للحمل على اللفظ، ونحوه قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدين فيها﴾[3] ﴿فيه﴾ أي:

(1) سورة مريم، الآية: 19.
(2) سورة آل عمران، الآية: 54.
(3) سورة الجن، الآية: 23.

obeikandi.com

في ذلك الوزر، أو في احتماله ﴿ساء﴾ في حكم بئس، والضمير فيه يجب أن يكون مبهمًا يفسره ﴿حملاً﴾ والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره: ساء حملاً وزرهم، كما حذف في قوله تعالى: ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾[1] أيوب هو المخصوص بالمدح، ومنه قوله تعالى: ﴿وساءت مصيرا﴾[2] أي: وساءت مصيرًا جهنم.

فإن قُلْتَ: اللام في ﴿لهم﴾ ما هي وبم تتعلق؟ **قُلْتُ:** هي للبيان كما في ﴿هيت لك﴾[3].

فإن قُلْتَ: ما أنكرت أن يكون في ﴿ساء﴾ ضمير الوزر؟ **قُلْتُ:** لا يصح أن يكون في ساء وحكمه حكم بئس ضمير شيء بعينه غير مبهم.

فإن قُلْتَ: فلا يكن ساء الذي حكمه حكم بئس وليكن ساء الذي منه قوله تعالى: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾[4] بمعنى أهم وأحزن؟ **قُلْتُ:** كفاك صادًا عنه أن يؤول كلام الله إلى قولك: وأحزن الوزر لهم يوم القيامة حملاً، وذلك بعد أن تخرج عن عهدة هذه اللام وعهدة هذا المنصوب، أسند النفخ إلى الآمر به فيمن قرأ: ننفخ بالنون، أو لأن الملائكة المقرّبين وإسرافيل منهم بالمنزلة التي هم بها من رب العزة، فصح لكرامتهم عليه وقربهم منه أن يسند ما يتولونه إلى ذاته تعالى، وقرئ*: ينفخ بلفظ ما لم يسم فاعله، وينفخ ويحشر بالياء المفتوحة على الغيبة، والضمير لله عزّ وجل، أو لإسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمون فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ*: في الصور بفتح الواو جمع صوره، وفي الصور قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الصور وهذه القراءة تدل عليه، والثاني إنه القرن. قيل في الزرق قولان: أحدهما: أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى الغرب؛ لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين، والثاني: أنّ المراد العمى؛ لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراق.

يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾.

تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التي تنكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفون بالقصر لأنّ أيام السرور قصار، وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضت والذاهب وإن طالت مدّته قصير بالانتهاء، ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت أطال الله بقاءك: كفى بالانتهاء قصرًا، وإما لاستطالتهم الآخرة وإنها أبد سر مد يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقاولاً منهم في قوله تعالى ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يومًا﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عددسنين. قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم فاسئل العادين﴾[5] وقيل: المراد لبثهم في القبور ويعضده قوله عزّ وجل: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين آوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾[6].

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾.

﴿ينسفها﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام ﴿فيذرها﴾ أي: فيذر مقارها ومراكزها، أو يجعل الضمير للأرض وإن لم يجر لها ذكر كقوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾[7].

فإن قُلْتَ: قد فرّقوا بين العوج والعوج فقالوا: العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ **قُلْتُ:** اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسوّيتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها أعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفي الله عزّ وعلا ذلك العوج الذي دقّ ولطف عن الإدراك اللهمّ إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه عوج بالكسر. الأمت النتوّ اليسير يقال: مدّ حبلة حتى ما فيه أمت.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾.

أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال في قوله: ﴿يومئذ﴾ أي: يوم إذ نسفت، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل من يوم القيامة. والمراد الداعي إلى المحشر. قالوا: هو إسرافيل قائمًا على صخرة بيت المقدس يدعو الناس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون ﴿لاعوج له﴾

---

(1) سورة صّ، الآية: 30.
(2) سورة النساء، الآية: 97.
(3) سورة يوسف، الآية: 23.
(4) سورة الملك، الآية: 27.
(5) سورة المؤمنون، الآيتان: 112 و113.
(6) سورة الروم، الآيتان: 55 و56.
(7) سورة فاطر، الآية: 45.

أي: لا يعوجّ له مدعوّ بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته. أي: خفضت الأصوات من شدّة الفزع وخفتت ﴿فلا تسمع إلا همسًا﴾ وهو: الركز الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو من همس الإبل وهو: صوت أخفاقها إذا مشت أي: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر ﴿من﴾ يصلح أن يكون مرفوعًا ومنصوبًا، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف أي: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من ﴿أذن له الرحمٰن﴾ والنصب على المفعولية، ومعنى أذن له ﴿ورضي له﴾ لأجله أي: أذن للشافع ورضي قوله لأجله، ونحو هذه اللام اللام في قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[1]. أي: يعلم ما تقدّمهم من الأحوال وما يستقبلونه ولا يحيطون بمعلوماته علمًا.

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾.

المراد بالوجوه: وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب صارت وجوههم عانية أي: ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم: الأسارى، ونحوه قوله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾[2] ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وقد خاب﴾ وما بعده اعتراض كقولك: خابوا وخسروا، وكلّ من ظلم فهو: خائب خاسر. الظلم أن يأخذ من صاحبه فوق حقه. والهضم أن يكسر من حق أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ويسترجحون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. أي: فلا يخاف جزاء ظلم ولا هضم؛ لأنه لم يظلم ولم يهضم وقرئ: فلا يخف على النهي.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾.

﴿وكذلك﴾ عطف على كذلك نقص أي: ومثل ذلك الإنزال[4] وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآيات المضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة، مكرّرين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي، أو فعل الخير والطاعة. والذكر كما ذكرنا يطلق على الطاعة والعبادة. وقرئ: نحدّث وتحدّث بالنون والتاء أي: تحدّث أنت وسكن بعضهم الثاء للتخفيف كما في:

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثمًا من الله ولا واغل

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾.

﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ استعظام له ولما يصرف عليه عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده، والإدارة بين ثوابه وعقابه على حسب أعمالهم، وغير ذلك مما يجري عليه أمر ملكوته. ولما ذكر القرآن وإنزاله قال: على سبيل الاستطراد، وإذا لقنك جبريل ما يوحي إليك من القرآن فتأنّ عليك ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولا تكن قراءتك مساوقة لقراءته، ونحوه قوله تعالى: ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به﴾[5] وقيل: معناه لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتى يأتيك البيان. وقرئ: حتى تقضى إليك وحيه، وقوله تعالى: ﴿رب زدني علمًا﴾ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له عندما علم من ترتيب التعلم أي: علمتني يا رب لطيفة في باب التعلم وأدبًا جميلاً ما كان عندي، فزدني علمًا إلى علم فإنّ لك في كل شيء حكمة وعلمًا، وقيل: ما أمر الله ورسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾.

يقال في أوامر الملوك ووصاياهم: تقدّم الملك إلى فلان وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه، عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾[6] والمعنى وأقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة، وتوعدناه بالدخول في جملة الظالمين إن قربها، وذلك من قبل وجودهم ومن قبل أن نتوعدهم، فخالف إلى ما نهي عنه وتوعد في ارتكابه مخالفتهم ولم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون، كأنه يقول: إنّ أساس أمر بني آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالنسيان؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يراد النسيان الذي هو نقيض الذكر، وأنه لم يعن بالوصية العناية الصادقة ولم يستوثق منها بعقد القلب عليها وضبط النفس حتى تولد من ذلك النسيان، وأن يراد الترك وأنه ترك ما وصي به من الاحتراس عن الشجرة وأكل ثمرتها، وقرئ: فنسي أي: نساه الشيطان. العزم التصميم والمضي على ترك الأكل وأن يتصلب في ذلك تصلبًا يؤيس الشيطان من التسويل له. والوجود يجوز أن يكون بمعنى: العلم، ومفعولاه: له عزمًا، وأن يكون نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزمًا.

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 11.

(2) سورة الملك، الآية: 27.

(3) سورة القيامة، الآية: 24.

(4) قال أحمد: الصواب في تفسيرها: ليكونوا على رجاء التقوى والتذكر، وإلا فلو أراد الله من جميعهم التقوى، لوقعت، وقد تقدّمت أمثالها، والعجب أنه نقل عن سيبويه في تفسير: لعل أوّل هذه = السورة عند قوله تعالى: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أنّ معناه: كونا على رجائكما، ثم رجع عن ذلك ههنا؛ لأنّ المعتقد الفاسد، يحذوه إلى هذا التأويل الباطل، والله الموفق.

(5) سورة القيامة، الآية: 16.

(6) سورة طه، الآية: 113.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾.

﴿إذ﴾ منصوب بمضمر أي: واذكر وقت ما جرى عليه من معاداة إبليس ووسوسته إليه وتزيينه له الأكل من الشجرة، وطاعته له بعد ما تقدّمت معه النصيحة والموعظة البليغة والتحذير من كيده حتى يتبين لك أنه لم يكن من أولي العزم والثبات.

فإن قُلْتَ: إبليس كان جنيًا بدليل قوله تعالى: ﴿كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه﴾[1] فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟ **قُلْتُ:** كان في صحبتهم وكان يعبد الله تعالى عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له، كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام المقبل على المجلس عليه أهله وسراتهم كان القيام على واحديينهم هو دونهم في المنزلة أوجب حتى عن لم يقم عنف وقيل له: قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تترفع عن القيام.

فإن قُلْتَ: فكيف صحّ استثناؤه وهو جني عن الملائكة؟ **قُلْتُ:** عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه فأخرج الاستثناء على ذلك كقولك: خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال ﴿أبى﴾ جملة مستانفة كأنه جواب قائل قال: لم لم يسجد؟ والوجه أن لا يقدّر له مفعول وهو: السجود المدلول عليه بقوله: فسجدوا، وأن يكون معناه: أظهر الإباء وتوقف وتثبط.

فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾.

﴿فلا يخرجنكما﴾ فلا يكونن سببًا لإخراجكما. وإنما أسند إليه آدم وحده فعل الشقاء دون حوّاء بعد إشراكهما في الخروج؛ لأنّ في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أنّ في ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على الفاصلة، أو أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع إليه، وروي: أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه، قرئ: ﴿وإنك﴾ بالكسر والفتح ووجه الفتح العطف على أن لا تجوع.

فإن قُلْتَ: أن لا تدخل على إنّ فلا يقال: إن آن زيدًا مطلق والواو نائبة عن إن وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها؟ **قُلْتُ:** الواو لم توضع لتكون أبدًا نائبة عن إن، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع إن[2] وأن. الشبع والري والكسوة والكن هي: الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحوّ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها.

فإن قُلْتَ: كيف عدّى وسوس تارة باللام في قوله: فوسوس ﴿لهما الشيطان﴾ وأخرى بإلى؟ **قُلْتُ:** وسوسة الشيطان كولولة الثكلى ووعوعة الذئب ووقوقة الدجاجة في أنها حكايات للأصوات وحكمها حكم صوت وأجرس ومنه وسوس المبرسم وهو موسوس بالكسر والفتح لحن. وأنشد ابن الأعرابي:

وسوس يدعو مخلصًا رب الفلق

فإذا قلت: وسوس له فمعناه: لأجله كقوله:

أجراس لها يا ابن أبيّ كباش

ومعنى وسوس إليه: أنهى إليه الوسوسة كقولك: حدّث إليه، وأسر إليه. أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، كما قيل لحيزوم: فرس الحياة لأنّ من باشر أثره حي ﴿وملك لا يبلى﴾ دليل على قراءة الحسن بن علي وابن عباس رضي الله عنهم: إلا أن تكونا ملكين بالكسر.

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾.

---

(1) سورة الكهف، الآية: 50.

(2) قال أحمد: تنبيه حسن، وفي الآية سرّ بديع من البلاغة يسمى: قطع النظير عن النظير، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة؛ وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال الكندي الأول:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أرشف الرزق الرويّ ولم أقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد أجفال

فقطع ركوب الجواد عن قوله لخيلي كرّي كرّة، وقطع تبطن = الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب، وغرضه أن يعدّد ملاذه ومفاخره ويكثرها، وتبعه الكندي الآخر فقال:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاعترضه سيف الدولة بأنه ليس فيه قطع الشيء عن نظيره، ولكنه على فطنته، قصر فهمه عما طالت إليه يد أبي الطيب من هذا المعنى الطائل البديع، على أن في هذه الآية سراً لذلك زائداً على ما ذكر، وهو أن قصد تناسب الفواصل، ولو قرن الظمأ بالجوع، فقيل: إنّ لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ، لانتثر سلك رؤوس الآي، وأحسن به منتظماً، والله أعلم.

طفق يفعل كذا مثل: جعل يفعل وأخذ وأنشأ، وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلاً مضارعًا، وبينها وبينه مسافة قصيرة هي للشروع في أوّل الأمر، وكاد لمشارفته والدنوّ منه. قرئ: ﴿يخصفان﴾ للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أي: يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين، وقيل: كان مدورًا فصار على هذا الشكل من تحت أصابعهما. وقيل: كان لباسهما الظفر، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما وتركت هذه البقايا في أطراف الأصابع. عن ابن عباس: لا شبهة في أنّ آدم لم يمتثل ما رسم الله له وتخطى فيه ساحة الطاعة وذلك العصيان، ولما عصى خرج فعله من أن يكون رشدًا وخيرًا فكان غيًا لا محالة؛ لأنّ الغي خلاف الرشد، ولكن قوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك مما يعبر به عن الزلات والفرطات، فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت علي النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيآت والصغائر فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر. وعن بعضهم: فغوى فبشم من كثرة الأكل، وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفًا فيقول في فني وبقي فنًا وبقاؤهم: بنوطي، تفسير خبيث.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿ثم اجتباه ربه﴾؟ **قُلْتُ:** ثم قبله بعد التوبة وقربه إليه من جبي إلي كذا فاجتبيته، ونظيره، جليت على العروس فاجتليتها، ومنه قوله عزّ وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾[1] أي: هلا جبيت إليك فاجتبيتها، وأصل الكلمة الجمع ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار و﴿هدى﴾ أي: وفقه لحفظ التوبة وغيره من أسباب العصمة والتقوى.

قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾.

لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلي البشر والسببين اللذين منهما نشؤا وتفرعوا جعلا كأنهما البشر في أنفسهما فخوطبا مخاطبتهم فقيل: ﴿فإما ياتيكم﴾ على لفظ الجماعة، ونظيره أسنادهم الفعل إلى السبب وهو في الحقيقة للمسبب ﴿هدى﴾ كتاب وشريعة. وعن ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم تلا قوله: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ والمعنى أنّ الشقاء في الآخرة هو عقاب من ضلّ في الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾.

الضنك مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث. وقرئ: ﴿ضنكى﴾ على فلى ومعنى ذلك: إنّ مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله وعلى قسمته، فصاحبه ينفق ما رزقه بسماح وسهولة فيعيش عيشًا رافغًا كما قال عزّ وجل: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾[2] والمعرض عن الدين مستول عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتوصفة: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره، قال الله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾[3] وقال: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾[4] وقال: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لتفحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[5] وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارًا﴾[6] وقال: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقًا﴾[7] وعن الحسن: هو الضريع والزقوم في النار، وعن أبي سعيد الخدري: عذاب القبر. وقرئ: ﴿ونحشره﴾ بالجزم عطفًا على محل فإنّ له معيشة ضنكًا لأنه جواب الشرط، وقرئ: ونحشره بسكون الهاء على لفظ الوقف وهذا مثل قوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا﴾[8] وكما فسر الزرق بالعمى ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر ولم تتبصر وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾.

لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في الآخرة حتم آيات الوعيد بقوله: ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ كأنه قال: وللحشر على العمى الذي لا يزول أبدًا أشد من ضيق العيش المنقضي، أو أراد: ولتركنا إياه في العمى أشد وأبقى من تركه لآياتنا.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 203.
(2) سورة النحل، الآية: 97.
(3) سورة البقرة، الآية: 61.
(4) سورة المائدة، الآية: 66.
(5) سورة الأعراف، الآية: 96.
(6) سورة نوح، الآيتان: 10 و11.
(7) سورة الجن، الآية: 16.
(8) سورة الإسراء، الآية: 97.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾.

فاعل. لم يهد الجملة بعده يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على نوح في العالمين﴾[1] أي: تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول ويدل عليه القراءة بالنون. وقرئ*: ﴿يمشون﴾ يريد أنّ قريشًا يتقلبون في بلاد عاد وثمود ويمشون ﴿في مساكنهم﴾ ويعاينون آثار هلاكهم.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾.

الكلمة السابقة هي: العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة يقول: لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عادًا وثمودًا لازمًا لهؤلاء الكفرة. واللزام: إما مصدر لازم وصف به، وإما فعال بمعنى مفعل أي: ملزم كأنه آلة اللزوم لفرط لزومه كما قالوا: لزاز خصم ﴿وأجل مسمى﴾ لا يخلو من أن يكون معطوفًا على كلمة، أو على الضمير في كان أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كانا لازمين لعاد وثمود، ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل.

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾.

﴿بحمد ربك﴾ في موضع الحال أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه، والمراد بالتسبيح: الصلاة، أو على ظاهره قدم الفعل على الأوقات أوّلاً، والأوقات على الفعل آخرًا، فكأنه قال: صل الله قبل طلوع الشمس يعني: الفجر، وقبل غروبها يعني: الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها، وتعمد آناء الليل وأطراف النهار مختصًا لهما بصلاتك، وذلك أنّ أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرجل والخلو بالرب، وقال الله عزّ وجل: ﴿إنّ ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً﴾[2] وقال: ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا﴾[3] ولأنّ الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشدّ وأشق وللبدن أتعب وأنصب فكانت أدخل في معنى التكليف وأفضل عند الله، وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة وفي أطراف النهار صلاة المغرب، وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾[4] عند بعض المفسرين.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿وأطراف النهار﴾ على الجمع وإنما هما طرفان كما قال: ﴿أقم الصلاة في طرفي النهار﴾[5] **قُلْتُ:** الوجه أمن الإلباس، وفي التثنية زيادة بيان، ونظير مجيء الأمرين في الآيتين مجيئهما في قوله: ظهراهما مثل ظهور الترسين، وقرئ*: وأطراف النهار عطًا على آناء الليل. ولعل للمخاطب أي: أنكر الله في هذه الأوقات طمعًا ورجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك، وقرئ*: ترضى أي: يرضيك ربك.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾.

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: نظر عينيك، ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانًا للمنظور إليه وإعجابًا به وتمنيًا أن يكون له كما فعل نظارة قارون حين قالوا: ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾[6] حتى واجههم أولوا العلم والإيمان: بـ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا﴾[7] وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك مثل نظر من باده الشيء بالنظر ثم غض الطرف، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع وأنّ من أبصر منها شيئًا أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه قيل: ﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي: لا تفعل ما أنت معتاد له وضاربه، ولقد شدّد العلماء من أهل التقوى في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمراكب وغير ذلك؛ لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها ﴿أزواجًا منهم﴾ أصنافًا من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالاً من هاء الضمير والفعل واقع على منهم؛ كأنه قال إلى الذي متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسًا منهم.

فإن قُلْتَ: علام انتصب ﴿زهرة﴾ **قُلْتُ:** على أحد أربعة أوجه: على الذم وهو النصب على الاختصاص، وعلى تضمين متعنا معنى أعطينا وخوّلنا وكونه مفعولاً ثانيًا له، وعلى إبداله من محل الجار والمجرور، وعلى إبداله من أزواجًا على تقدير ذوي زهرة.

فإن قُلْتَ: ما معنى الزهرة فيمن حرّك؟ **قُلْتُ:** معنى الزهرة بعينه وهو: الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة الجهرة وقرئ*: ﴿أرنا الله جهرة﴾[8] وأن تكون جمع زاهر

---

(1) سورة الصافات، الآيتان: 78 و79.
(2) سورة المزمل، الآية: 6.
(3) سورة الزمر، الآية: 238.
(4) سورة البقرة، الآية: 238.
(5) سورة هود، الآية: 114.
(6) سورة القصص، الآية: 79.
(7) سورة النساء، الآية: 153.
(8) **قال أحمد:** لولا أنّ غرض القدرية من هذا إثبات رازق غير الله تعالى، كما أثبتوا خالقاً سوى الله تعالى، لكان البحث لفظياً، فالحق والسنة أنّ كل ما تقوم به البينة رزق من الله تعالى، سواء كان حلالاً أو غيره، لا يلزم من كون الله تعالى رزقه أن يكون حلالاً، فكما يخلق الله تعالى على يدي العبد ما نهاه عنه، كذلك يرزقه

=

وصفًا لهم بأنهم زاهر، وهذه الدنيا لصفاء ألوانهم مما يلهون ويتنعمون وتهلل وجوههم وبهاء زيهم وشارتهم بخلاف ما عليه المؤمنون والصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب ﴿لنفتنهم﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه[1] ﴿ورزق ربك﴾ هو ما أدخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوّة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه والحلال ﴿خير وأبقى﴾ لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث. والحرام لا يسمى رزقًا أصلاً، وعن عبد الله بن قسيط، عن رافع قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى يهوديّ وقال: «قل له يقول لك رسول الله أقرضني إلى رجب». فقال: وا الله لا أقرضته إلا برهن، فقال رسول الله: «إني لأمين في السماء وإني لأمين في الأرض أحمل إليه درعي الحديد»[2] فنزلت ﴿ولا تمدّن عينيك﴾.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾.

﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أي: وأقبل أنت مع أهلك على عبادة الله والصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم، ولا تهتم بأمر الرزق والمعيشة فإنّ رزقك مكفيّ من عندنا ونحن نرزقوك ولا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، ففرّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من دان في عمل الله كان الله في عمله، وعن عروة بن الزبير: أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين. قرأ: ﴿ولا تمدّن عينيك﴾ الآية، ثم ينادي الصلاة الصلاة رحمكم الله، وعن بكر بن عبد الله المزني: كان إذا أصابت أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، بهذا أمر الله رسوله، ثم يتلو هذه الآية.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾.

اقترحوا على عادتهم في التعنت آية على النبوّة فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هي أمّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز يعني: القرآن. من قبل أنّ القرآن برهان ما في سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لأنه معجزة، وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة. وقرئ: الصحف بالتخفيف. ذكر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى: البرهان والدليل.

وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾.

قرئ: ﴿نزلّ ونخزى﴾ على لفظ ما لم يسم فاعله ﴿كل﴾ أي: كل واحد منا ومنكم ﴿متربص﴾ للعاقبة ولما يؤوّل إليه أمرنا وأمركم. وقرئ: السواء بمعنى: الوسط والجيد، أو المستوي، والسوى والسوأى والسوء تصغير السوء، وقرئ: فتمتعوا فسوف تعلمون. قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ: «عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار»[3] وقال: لا يقرأ أهل الجنة من القرآن إلا طه، ويس»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنبياء مكيّة

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾.

هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلةً «لاقترب» أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم كقولك: أزفّ للحيّ رحيلهم، الأصل أزفّ رحيل الحي، ثم أزفّ للحي الرحيل، ثم أزفّ للحي رحيلهم ونحوه ما أورده سيبويه في باب ما يثنى فيه المستقرّ، توكيدًا عليك زيد حريص عليك وفيك زيد راغب فيك. ومنه قولهم: لا أبًا لك، لأنّ اللام مؤكدة لمعنى الإضافة وهذا الوجه أغرب من الأوّل، والمراد: اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب، وغير ذلك ونحوه واقترب الوعد الحق.

فإن قُلْتَ: كيف وصف بالاقتراب وقد عدّت دون هذا القول أكثر من خمسمائة عام؟ **قُلْتُ:** هو مقترب عند الله والدليل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾[5] ﴿وإنّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدّون﴾[6] ولأنّ كلّ آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه قريب، إنما البعيد هو الذي وجد وانقرض ولأنّ ما بقي في الدنيا أقصر وأقل مما سلف منها، بدليل انبعاث خاتم النبيين

= ما أباح له تناوله وما لا، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله الموفق للصواب.

(1) سورة القصص، الآية: 80.

(2) كشف الأستار كتاب، البيوع، باب: القرض والبيع إلى أجل (الحديث رقم: 1304).

(3) ذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي (2/356).

(4) ذكره الثعلبي في تفسيره الزيلعي (2/356).

(5) سورة الحج، الآية: 47.

(6) سورة الحج، الآية: 47.